الآخر في خطب الإمام الحسن عليه السلام

الأستاذ المساعد الدكتور
شيماء هاتو فعل
جامعة البصرة ـ كلية التربية للعلوم الإنسانية

المدخل:ـ

الحمد لله بعدد اسمائه ومعانيها، وبعدد نعمائه وآلائه، الحمد لله بقدر ما في السماء وما علت، نحمدك على جميل ما اعطيت وجزيل ما وفيت وسددت وارضيت، إنك على كل شيء قدير وبالاستعانة والاجابة جدير، فقد فضلت وانعمت علينا وارضيت لنا ووضحت طريق الحق والهداية، حتى نكون ممن شملتهم بالهداية والتسليم، فتخط قلوبنا قبل اقلامنا حروفاً وكلماتاً بحق ائمتنا عليهم السلام فيكون الإمام الزكي المجتبى ثاني الأئمة الذين وفقنا الله سبحانه وتعالى للكتابة عنهم وان كانت ما خطته اقلامنا لا ترقى إلى مستوياتهم ومنزلتهم عند محبيهم راجين أن تكون خطوة ترقينا عندهم فيمنون علينا ولو بهمس من نفاثاتهم الروحانية، أو نسمة عليلة تأتينا منهم تكون لنا رحمة ومغفرة ويزيدوننا علماً وفهماً، ويكونون لنا هداية ونوراً في حياتنا ومماتنا، وعسى أن يكونوا هم أولى بنا ولنا في ديننا وآخرتنا والحمد لله أولاً وأخراً.

ومما لا شك فيه إن الآخر مصطلح شاع في دراسات الخطاب وهو نقيض للذات أو الأنا وهو تصنيف استبعادي يقتضي إقصاء كل ما لا ينتمي إلى نظام أو فرد أو جماعة أو مؤسسة سواء كان النظام قيما اجتماعية أو اخلاقية أو سياسية أو ثقافية[1].

ذات الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في خطبه:

لكل عصر ظروف معينة، يكون له اسبابه ومنطلقاته، وعندما نتحدث عن

الإمام الحسن عليه السلام فأن حياته تختزل في الهدنة التي اضطر إلى قبولها لأسباب نعرفها وأخرى نجهلها، فلإمام مفترض الطاعة لا يستطيع أحد أن يُقوِّله نتائج، ويبني على تقولاته اسباب ليست لها صحة فتكتنفها المغالطة وعدم الإنصاف.

ومما نلتمسه من خلال استعمال الإمام المجتبى عليه السلام لأسلوب الحديث عن الذات إظهار احقيتها في الخلافة، وفي الوقت نفسه يعكس صورة الآخر الذي يكون على النقيض من الذات بمعنى إن هناك آخراً يسعى إلى انتزاع الخلافة منه أو من أبيه، وان هناك آخراً يشكك في خلافتهم وآخر ليس له أدراك وإيمان بالله سبحانه وتعالى "وقد روي أنه عليه السلام لما طالبه معاوية بأن يتكلم على الناس، ويعلمهم ما عنده في هذا الباب، قام فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: إن أكيس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفجور، أيها الناس إنكم لو طلبتم بين جابلق وجابرس رجلا جده رسول الله صلى الله عليه وآله ما وجدتموه غيري، وغير أخي الحسين، وإن الله قد هداكم بأولياء محمد صلى الله عليه واله وإن معاوية نازعني حقا هو لي، فتركته لصلاح الامة وحقن دمائها، وقد بايعتموني على أن تسالموا من سالمت، فقد رأيت أن اسالمه ورأيت أن ما حقن الدماء خير مما سفكها، وأردت صلاحكم، وأن يكون ما صنعت حجة على من كان يتمنى هذا الأمر، ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[٢]"[٣] وقلما تظهر ذات الإمام الحسن عليه السلام في خطبه بينما نلحظ شيوع الآخر يكاد يطغى على الذات بصورة ملفتة للنظر.

ومن باب زيادة التعريف بشخصه الكريم معرفاً بنفسه فأنه قال: "أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، أنا ابن السراج المنير، أنا من أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، أنا من أهل بيت افترض الله حبهم في كتابه فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾[٤] فالحسنة مودتنا أهل البيت"[٥] دلالة على السلالة الطيبة من النبي صلى الله عليه وآله وكلها تسميات تؤكد تمسكه بالإيمان الذي يدعو إليه الله سبحانه وتعالى،

فضلاً عن تكرير الضمير المنفصل(أنا) تعريفاً وتذكيراً للناس.

ولنلحظ السجع عندما يتحدث الإمام الزكي عن نفسه بقوله " الغالبون، الاقربون، الطاهرون "وقوله" وزراً، جزراً، حطماً، غرضاً، خيراً"[٦] فهو "... يتمثل اسلوب القران السجعي الأخاذ المنطوي على فكر عظيم بعظمة قائله"[٧] وكذلك في قوله: "ردعت القلوب لهيبته، وذهلت العقول لعزته، وخضعت الرقاب لقدرته"[٨].

وتشيع في خطب الإمام الحسن عليه السلام حوارات تركز على الآخر الذي يعيشه من خلال منطوق الخطبة ومحتواها، و.. لاشك أن مفهوم الآخر يتأسس على مفهوم "الجوهر" أي إن ثمة سمة اساسية جوهرية تحدد الذات مما يجعل الآخر مختلفاً عنها وبالتالي لا ينتمي إلى نظامها[٩] وهذه الخطب في مجموعها يكون الآخر فيها إيجابياً أو سلبياً مغايراً فالأول يركز على الوضع السياسي بما فيه من هدنة ومقتل الإمام علي عليه السلام وتعداد صفاته، ومن ثمة الحديث عن وحدانية الله وصفاته، وبيعة الإمام الحسن عليه السلام، والآخر المغاير يتمثل بمعاوية والمجتمع.

الآخر الإيجابي (الذات الإلهية):

وهو الذات الإلهية التي يبدأ فيها خطبته مستهلاً إياها بالحمد لله وبيان فضله من خلال تعداد أسماء الله الحسنى (الآخر) التي وظفها الإمام وهي (الواحد، الدائم، القائم، الخالق، العزيز، اللطيف، الخبير) فيها دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعزته وديمومته وقيموميته فهو الخالق الخبير بعباده، وفيها قال: "الحمد لله الواحد بغير تشبيه، الدائم بغير تكوين القائم بغير كلفة، الخالق بغير منصبة، الموصوف بغير غاية، المعروف بغير محدودية العزيز لم يزل قديما في القدم، ردعت القلوب لهيبته، وذهلت العقول لعزته وخضعت الرقاب لقدرته، فليس يخطر على قلب بشر مبلغ جبروته، ولا يبلغ الناس كنه جلاله، ولا يفصح الواصفون منهم لكنه عظمته، ولا تبلغه العلماء بألبابها، ولا أهل التفكر بتدبير أمورها، أعلم خلقه

به الذي بالحد لا يصفه، يدرك الابصار ولا يدركه الابصار"[١٠] ثم يأتي بعد ذلك اقترانه بالحديث عن الإمام علي عليه السلام دالاً على خلافته والمنهجية التي سار عليها على وفق ما اراده الله عزّ وجل أي ان هناك ربطاً بين المنهج الذي حدده لعباده ومنهج الإمام علي عليه السلام، وما قول الإمام الحسن عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام بانه قسيم الجنة والنار إلا ترجمة لحديث النبي بحق الإمام علي "يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق"[١١].

وفي خطبة اخرى قال فيها: "الحمد لله الذي لم يكن له أول معلوم ولا آخر متناه، ولا قبل مدرك، ولا بعد محدود، ولا أمد بحتى ولا شخص فيتجزأ، ولا اختلاف صفة فيتناهى فلا تدرك العقول وأوهامها، ولا الفكر وخطراتها، ولا بدئ مما، ولا ظاهر على ما، ولا باطن فيما، ولا تارك فهلا خلق الخلق فكان بدئا بديعا، ابتدأ ما ابتدع، وابتدع ما ابتدأ، وفعل ما أراد وأراد ما استزاد، ذلكم الله رب العالمين"[١٢] يجدد ذكر علم الله وعدم محدوديته، فهو لا يدركه أحد وليس له صفة ولا تدركه العقول ولا يعلمه الفكر، وهو ظاهر وباطن.

وقال في خطبة يبدأها بالحمدلة ثم يأتي بعد ذلك الطباق (عاش × مات) مؤكداً زوال الدنيا وبقاء الآخرة، وعلمية الله بكل شيء، وإليه معاد البشر، وعليه رزق العباد، وان هناك اموراً تأتي لا محالة وان دار القرار في القبور، وان الناس على موعد مع يوم القيامة، ويقرنه بالإمام فمن دخله كان آمناً ومن خرج عنه كان كافراً، ويتجلى ذلك بقوله: "الحمد لله الذي من تكلم سمع كلامه، ومن سكت علم ما في نفسه، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه معاده، أما بعد فإن القبور محلتنا، والقيامة موعدنا، والله عارضنا، إن عليا باب من دخله كان مؤمنا، ومن خرج عنه كان كافرا"[١٣].

يشير الإمام في هذه الخطبة إلى الآخر الله عزّ وجل مؤكداً ربوبيته ووحدانيته وعظمته وكبريائه وفيها قال: " الحمد لله الذي توحد في ملكه، وتفرد في ربوبيته:

يؤتي الملك من يشاء، وينزعه عمن يشاء، والحمد لله الذي أكرم بنا مؤمنكم، وأخرج من الشرك أولكم، وحقن دماء آخركم، فبلاؤنا عندكم قديما وحديثا أحسن البلاء، إن شكرتم أو كفرتم..."[١٤].

الآخر الإيجابي النبي محمد صلى الله عليه وآله:

هناك حديث للنبي صلى الله عليه وآله عن الإمام الحسن عليه السلام قال فيه:" من سره ان ينظر إلى سيد شباب اهل الجنة فلينظر إلى الحسن بن علي"[١٥] ومن هذا الحديث ننطلق إلى القول: مَنْ كان سيد شباب أهل الجنة فأنه يكون القدوة والسيرة الحسنة ومضرب للحكمة والقيادة فضلاً على ذلك فهو إمام مفترض الطاعة وما حصل في عصره كان خروج ونكوث للمواثيق والعهود نكثها الناس تجاه أحقيته بالخلافة.

وانطلاقاً من مقولة النبي صلى الله عليه وآله واحاديثه بحقه الأئمة مثل قوله "الحسن والحسين امامان قاما أو قعدا"[١٦] فينبغي أن لا تأول وتتعالى الصيحات بحق افعالهم واعمالهم فلهم الدراية والعلم ويعرفون حق المعرفة بما يتلاءم واجواء الصالح العام.

لم ينطلق الإمام في خطبه من موقف الضعف والوهن، وإنما من موقف الخوف على الأمة والحفاظ على الدين الاسلامي ودين جده رسول الله صلى الله عليه وآله وإلا فأن الإمام الحسن وباعتراف ألد اعداءه وهو مروان بن الحكم بأن حلمه يزن بالجبال، يظهر الآخر في كلام الامام الحسن عليه السلام عن النبي الذي اختصه الله سبحانه وتعالى برسالته في خطبته التي قال فيها " واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أمتن علينا بنبوته، واختصه برسالته، وأنزل عليه وحيه، واصطفاه على جميع خلقه، وأرسله إلى الانس والجن، حين عبدت الاوثان وأطيع الشيطان، وجحد الرحمن، فصلى الله عليه وعلى آله وجزاه أفضل ما جزى المسلمين"[١٧].

ويتحدث الإمام عن شؤون النبوة فقد بُعث النبي محمد صلى الله عليه وآله هادياً ومبشراً ونذيراً. وقال ايضاً "وبعث إليهم شهيدا عليهم وبعث فيهم النبيين مبشرين

ومنذرين... والحمد لله الذي أحسن الخلافة علينا أهل البيت، وعنده نحتسب عزانا في خير الاباء رسول الله صلى الله عليه وآله[١٨].

الآخر الإيجابي (الإمام علي عليه السلام):

استعمل الإمام في بيان فضل (الآخر) أبيه الإمام علي عليه السلام الأفعال المضارعة (يجاهد، يقيه، يسبقه، يدركه، يرجع، يوجهه، يفتح، يكتنفه، يبتاع) والأفعال الماضية (قبض، خلف، بكى، كان، قال) ونلتمس ذلك من قوله: " لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الاولون بعمل، ولا يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله فيقيه بنفسه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يوجهه برايته فيكنفه جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فلا يرجع حتى يفتح الله على يديه. ولقد توفي عليه السلام في الليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم عليه السلام، وفيها قبض يوشع ابن نون وصي موسى..."[١٩] وهذه الأفعال التي وظفها توضح مدى الترابط والمحبة التي كانت قائمة بين النبي صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام فقد كان الإمام علي قائد جيشه وكان يجاهد معه ويقيه بنفسه، ولمنزلته أيضاً عند الله فأنه يضع جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله في المعركة، ثم يذكر اليوم العظيم الذي توفي فيه الإمام علي وهو اليوم نفسه الذي عرج بعيسى بن مريم، وفيه قبض يوشع بن نون، ثم يعرج إلى عدم تسلط الإمام وتسيده فهو لم يسيطر على أموال الناس ويتصرف بها كيفما شاء لذلك فهو لم يخلف صفراء ولا بيضاء في إشارة منه لعدم امتلاكه الذهب والفضة إلا دراهم معدودة أراد يبتاع بها لأهله خادماً ويتضح ذلك في قوله "... وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادما لأهله"[٢٠].

وفي خطبة أخرى يبدأها بالحمد لله وتسليمه للقضاء والقدر، مبيناً إن وفاة الآخر الإمام علي عليه السلام قضاءً وقدراً، لذلك يقول إن الدنيا دنيا زوال وكل ما فيها إلى فناء، وقد وضح الله عزّ وجل لنا هذا وقد قدم الوعيد كي يكون لنا الحجة والقدرة على التغيير، وموظفاً الطباق (السر × العلانية، المحيا × الممات، عاش ×

مات، تسالموا × تحاربوا) مجسداً ذلك في خطبته قائلاً فيها: "الحمد لله على ما قضى من أمر، وخص من فضل، وعم من أمر، وجلل من عافية حمدا يتمم به علينا نعمه ونستوجب به رضوانه، إن الدنيا دار بلاء وفتنة وكل ما فيها إلى زوال، وقد نبأنا الله عنها كيما نعتبر، فقدم إلينا بالوعيد كي لا يكون لنا حجة بعد الانذار، فازهدوا فيما يفنى، وارغبوا فيما يبقى، وخافوا الله في السر والعلانية، إن عليا عليه السلام في المحيا والممات والمبعث عاش بقدر و مات بأجل، وإني ابايعكم على أن تسالموا من سالمت وتحاربوا من حاربت، فبايعوه على ذلك" "[٢١].

وفي خطبة أخرى يشير إلى الإمامة، فأن الله بعث الأئمة كي يكونوا هداة يهدون الناس إلى ما يصلح أحوالهم ومنها قوله: ".... فلا مبدل لخلقه، ولا معير لصنعه، ولا معقب لحكمه، ولا راد لأمره ولا مستراح عن دعوته، خلق جميع ما خلق، ولا زوال لملكه، ولا انقطاع لمدته فوق كل شيء علا، ومن كل شيء دنا، فتجلى لخلقه من غير أن يكون يرى وهو بالمنظر الاعلى. احتجب بنوره، وسما في علوه، فاستتر عن خلقه"[٢٢] ففي ذكر الإمام للوحدانية والنبوة والإمامة لحاجة الناس لمعرفة أمور دينهم ودنياهم وتذكيرهم بها والتشريعات المهمة الملقاة على عاتقه لا بد له من التذكير بها وإيصالها إلى الناس، وقد وظف الإمام في خطبته الطباق (يرى × احتجب، جهلوه وانكروه × يعرفوه، الشرق × الغرب) فضلاً على التكرير (لا) مع الأفعال (مبدل، مغير، معقب، راد، مستراح، زوال، انقطاع) وحصر الإمامة بالأئمة الاثني عشر مؤكداً ان موتهم يكون بالقتل أو السم، حسبما ذكره لهم الرسول صلى الله عليه وآله.

ومن خطبه بحق أبيه بعد الحمد لله والثناء عليه يعدد مناقب الإمام علي عليه السلام ويعدد صفاته الذي جعلته أميراً على الناس ويبدو ذلك في قوله " فإن عليا باب من دخله كان مؤمنا، ومن خرج منه كان كافرا أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم"[٢٣].

ويأتي الآخر الايجابي في كلام الإمام الحسن عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام الذي طالما ذكره في خطبه قوله " فهو الذي ارشد الله أمره، واعزه ونصره، وهو الذي صلى مع النبي، وتصدق في العاشرة من عمره، فقد كان النبي راضياً عنه حتى غمضه بيده، وغسله وحده، والملائكة أعوانه"(٢٤).

يتبادر للمتلقي وهو في حالة تلقيه وسماعه للخطب التي يتحدث فيها عن الإمام علي عليه السلام مظلوميته وعدم أحقيته بالخلافة، فضلاً على الأحاديث النبوية التي تؤكد حالة التفاني والوئام بين النبي والإمام علي عليه السلام ومن عنوان الخطب أيضاً يتضح المضمون الذي يريده الإمام الحسن عليه السلام.

ويسرد في خطبة أخرى حديث من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله في فضل الإمام علي عليه السلام بقوله: "أيها الناس سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أنا مدينة العلم وعلي بابها وهل تدخل المدينة إلا من بابها"(٢٥) وحديثه هذا يثمن المكانة التي يحتلها الإمام علي عليه السلام بالنسبة لله عزّ وجل وللنبي محمد صلى الله عليه وآله.

الآخر المغاير (معاوية والمجتمع):

إن حالة الخذلان وعدم الإيمان من المجتمع وما فيه من عادات وتقاليد وكيفية مواجهتها وتغلبه على المصاعب والمتاعب التي كان يلاقيها حتى من المقربين جعلت الإمام الحسن عليه السلام يلجأ إلى الهدنة من أجل حقن دماء المسلمين حتى يعود الأمن والاستقرار إلى المجتمع بعد وفاة أبيه، فكثرة اللغط والفتنة وعدم الشعور بالأمان يدب بين أركان الأمة مما جعله يحاجج ويقدم العلل والتبريرات حتى يقنع الآخر، فهو يرى فيه " هتاف الشيطان " وأعوانه لا يجب إتباعهم وقوله هذا يؤكد سلبية الآخر جاعلاً منه عدو مبين.

موقف الآخر المغاير كان في حالة من التأهب والخوف لا بل والتآمر عليه واخذ الحكم والخلافة منه، ولأنه من تربية البيت النبوي، فنلحظ عدم الانسجام والتصالح بينه وبين الأمويين، هذا إذا ما علمنا أن أثر الإمام الحسن عليه السلام تركز

على الإيضاح وتثبيت المجتمع الذي كان يعيش معه، ويود لو أن الأفكار والمفاهيم والأوضاع التي كانت منتشرة في المجتمع من فوضى وسوء فهم وخلط المفاهيم التي بثها النبي صلى الله عليه وآله لذلك نجده يبين أحقيتهم بالإمامة، والطعن والقساوة التي لاقوها من المجتمع آنذاك، فضلاً عن بيان مظلومية الإمام علي عليه السلام موضحاً مناقب أبيه وبيان الأسباب التي دعت إلى الهدنة وعدم خوفه من معاوية وأعوانه.

عندما يشعر الآخر المغاير (معاوية) بأحقية الامام الحسن عليه السلام وانتصاره فإنه يذهب من أجل تحشيد الرأي العام عليهم وكثرة الادعاءات والاشاعات بحق البيت العلوي ويعمل على شحن العداء والكره ضد الإمام الحسن عليه السلام ويذهب مشوهاً الحقائق والمفاهيم أمام الناس حتى يكسب رضاهم ويتحولون إلى اعداء ومنتهكين للحقوق والواجبات.

وعندما طلب معاوية من الإمام الحسن أن يخطب بين الناس بعد الهدنة يتضح من كلام الآخر المتمثل بمعاوية المغتصب لحقه، ومنازعته لمنصبه، الضلالة والقتل وسفك الدماء والحمق والفجور ظاهراً حديثه عن ذاته مبيناً لجمهور الناس بأن جده رسول الله صلى الله عليه وآله وقد اراد الإمام بالهدنة " أن يحقن دماء المسلمين ويردهم إلى الجماعة، ويزيل أسباب الفرقة وإن ضحى في سبيل ذلك بخلافته، ومضى يقنع الناس بالدخول في طاعة معاوية، مبيناً للناس أن خيرهم في ذلك..."[٢٦].

ونقول أين الإيمان؟ أين العقيدة؟ أين المثل؟ أين الاحكام والمبادئ التي شاعها النبي من كتابه المعجز الذي انزله الله سبحانه وتعالى عليه، وأكد على اتباع آياته فقد شرع به الاحكام وبين حلاله وحرامه. إذاً لماذا تلاشت هكذا اركانه؟ وكأن النبي محمد صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام لم يرسيا أركان الإسلام والعقيدة في نفوس ذلك المجتمع، ولم يخلقوا منه مجتمع موالٍ محبٍ لأهل البيت عليهم السلام. وكأن القيم والمبادئ قد اضمحلت في ذلك المجتمع الذي لم يحافظ على سنة النبي والشريعة المحمدية " وكأن آداب الصيام والصلاة والحج لم تعد هي التي تزكي

أخلاق الرعية، وإنما هو أدب الطاعة وأدب السمع وحده الذي يطلبه الحاكم من محكومية، فليصل الناس من وراء الجدران أو يدعوا الصلاة إلى غيرها، هذا أمر متروك لهم، وإنما الذي لا يترك ويشغل بال الحاكم ويرقبه هو أن يبقى كل واحد منهم وراء الجدران حلساً من أحلاس البيت. وحياة الترف والغناء في الحجاز في العصر الأموي شاهدة على ذلك"[٢٧].

يشير الإمام إلى الآخر (المجتمع) الذين لم يبايعوه والناكثين عنه والحاسدين له، وهو هنا يوضح صورة من صور الآخر السلبي وهو المجتمع الذي سلب حق أمير المؤمنين في الخلافة والإمامة ولم يتبعوه بل خالفوه وهذا ما جسده بقوله " ثم نكث منهم ناكثون بلا حدث أحدثه، ولا خلاف أتاه، حسداً له وبغياً عليه"[٢٨] لذلك فهو يدعوهم أي الإمام الزكي عليه السلام إلى تقوى الله وطاعته والجد والصبر والاستعانة به.

وأننا لا نرى في أن ما وجده الإمام الحسن عليه السلام فقط من التعبئة والعداء الذي يكنه إليهم البيت الأموي، وإنما من المجتمع الذي عاصره الإمام فقد كان يغلب عليهم الحقد والضغينة وعبدة أوثان والوهم فهم يهرعون مع كل من كان يعطيهم ويغريهم بالأموال والهدايا وألا أين عقيدتهم وحبهم لأهل البيت الذين أوصى بهم الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، والأحاديث النبوية التي كانت تؤكد محبتهم وإتباعهم، فالمجتمع الذي كان آنذاك ما هو إلا وجهان لعملة واحدة يقدس البيت الأموي، فلو كان في ذلك المجتمع شخصيات معروفة بحبها وتفانيها من أجل أهل البيت والنبي صلى الله عليه وآله أمثال سلمان المحمدي وابا ذر وعمار بن ياسر وأمثال أصحاب الإمام علي عليه السلام كميل بن زياد والثمالي ومالك الأشتر وغيرهم كثيرين، واصحاب الحسين عليه السلام وان كان المجتمع الذي عاصره الإمام الحسين عليه السلام نسخة مشابهة لما عاصره الإمام الحسن عليه السلام ولكن تبقى الصحابة والثلة الخيرة التي ناصرت ودافعت بكل ما تملك من أجل الدفاع عن الدين الإسلامي وأهل البيت متمثلة بأصحاب الإمام الحسين عليه السلام.

الخاتمة:

إن اكثر أمر يطغى على خطب الإمام الحسن المجتبى عليه السلام غلبة جانب الطباق أي الشيء وضده، ودائماً الطرف النقيض لأمر ما هو الآخر بالنسبة إليه، وفي المغايرة والنقيض يتضح الآخر الايجابي والسلبي، وفي خطب الإمام الحسن الزكي عليه السلام يتشكل نوعان من الآخر هو الآخر الايجابي الذي يبدو في (الذات الإلهية والنبي محمد صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام) ونقول كلما بدت الذات في الحديث عن دائرة وجودها كلما ظهر إلى جانبها آخر مضاد أو مغاير ومختلف عن الذات، على أن الاختلاف والتضاد أو حتى المغايرة لا تعني دائماً عدم التوافق بمعنى ان هذا الامر بالضد السلبي للذات أم ما تتضمنه خطب الإمام الحسن من مفهوم الآخر فهو يعني الآخر المغاير غير الموافق للذات مثل مغايرة الحق للباطل، ومغايرة الليل للنهار وهذا الاختلاف أو المغايرة السلبية هي ما جاءت في خطب الإمام الحسن في مفهوم الآخر السلبي المضاد لمبادئ وتوجهات الإمام المجتبى.

لم نجد في خطب الإمام المجتبى عليه السلام أسلوب السباب والشتم والنيل من البيت الاموي وهذا هو ديدنهم فمنهم نتعلم حسن التصرف والسلوك، ومع حدة الصراع وشدة الفتنة في ذلك الوقت وهذا ما تلمسناه من خطبه، لكننا مع ذلك نستطيع إن نوضح موقف الآخر من خلال كشف الذات عن موقفها وحديثها عن أمور ومجريات ذلك الوقت، ثم بيان مدى تمسكها بالله تعالى والسير على المنهج الذي حدده الله عزّ وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله ووليه علي بن ابي طالب عليه السلام ولذلك نجده في أغلب خطبه يفتتحها بالحمد لله والثناء عليه وتعداد صفاته رابطاً حديثه هذا بالحديث عن النبي ووليه علي عليه السلام وعلاقته بالنبي صلى الله عليه وآله.

يتجلى الآخر الايجابي بصورة الذات الإلهية من خلال تعداد صفاته وذكر اسماءه الحسنى، والآخر الإمام علي عليه السلام مبيناً المنهج الذي سار عليه وموضحاً للناس أنه باب من ابواب الله عزّ وجل به يرحم العباد وبه يعذبون، وهذه ترجمة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله مؤكداً ما حدده الله سبحانه وتعالى، وما قاله النبي بحق

الإمام علي "أنا مدينة العلم وعلي بابها وكلا قولي الآخر (الذات الإلهية والنبي محمد صلى الله عليه وآله) يظهران دور الإمام علي في الإيمان ومنزلته العظيمة التي وصفها من نزه الإمام عن كل دنس وتأكيد عبوديته وأهليته للقيادة والاتباع، إن الآخر (الذات الإلهية) في الطباق يظهر قدرة الله واعجازه وإبداعه في خلق الكون.

من خلال عنوانات الخطبة ومقدماتها ينعكس ذلك الخراب النفسي والأهواء والأفكار التي كانت سائدة حينئذٍ المضادة تجاه الإمام وكأن المقدمة توحي بعدم الاستقرار فلم نلحظ في تلك الخطب تلك الديباجة التي كان يستعملها الرسول والإمام علي في خطبهم، وكأن عامل السرعة والتشويش قد حوى موضوعات الخطب فلم يهتم بالديباجة والاستهلال المطلوب فيها، وانما كان جل همه إيصال الفكرة التي يريد ايضاحها للمجتمع.

من خلال الخطب وما استوعبته من اساليب بلاغية يتحدد الآخر إذا كان ايجابياً أم سلبياً مغايراً، وفيها الالفاظ والعبارات التي تكونت منها الخطب موضوع البحث وشكلت الرؤية عن موقف الإمام الحسن عليه السلام واحتوت مظلوميته، وبدت الحقائق والمعارف التي كانت لدى الإمام، والتي كشفت عن جوانب نفسية كان يعيشها الإمام.

واستبان من خلال استقراء خطب الإمام الحسن عليه السلام واحاديثه ضعف المناصرة والمدافعة عنه، فقاعدة الإيمان والإسلام لم تكن قوية ومتماسكة، وانما كانت هشة تستدعي رباطة الجأش وقوة الشكيمة، حتى تكون رصينة لذلك ركن إلى الهدنة التي عقدت بينه وبين معاوية.

لم يكن الآخر في خطب الإمام الحسن عليه السلام غير واضح، وانما كان معيناً ومباشراً بعيداً عن الغموض والتعقيد، فقد كان هذا الآخر جلياً تستعمل معه الانواع البلاغية من جناس وطباق واستعمال وأفعال لماضية ومضارعة فضلاً على الآيات القرآنية حتى تكون الفكرة واضحة.

ينطلق الآخر (السلبي) من مفهوم مادي، وينطلق الإمام الحسن عليه السلام من مفهوم معنوي (ايجابي) ومن يبحث عن الآخرة لا يلتقي مع من يبحث عن الدنيا ومغرياتها، ما بين المفهومين تناقض واضح جعلت الطرف الآخر يختلق الاسباب ويدعو إلى أمور ومبادئ واهية ويعلل الاسباب ويقدم التبريرات التي ليست لها صحة من العقل في شيء، وقد أراد الإمام الحسن شيء وارادوا هم اشياء ولو كانت على حساب أهل بيت النبوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

قصر الخطب وقصر النفس فيها على عكس ما نجده في احاديثه واقواله وحكمه وهي على قصرها إلا إنها ذات دلالات إيحائية ومعانٍ مكتنزة، فقد كانت الخطب تتلائم بما كان يشيع في ذلك العصر من فوضى واضطراب يستدعي السرعة وعدم الاهتمام بالنواحي الجمالية، وانتهاز الفرصة حتى تصل المعلومة كاملة.

قائمة الهوامش

(١) ينظر: دليل الناقد الأدبي: د. ميجان الرويلي، د. سعد البازعي: ٢١.
(٢) سورة الأنبياء: ١١١.
(٣) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٤٤/ ٣٠.
(٤) سورة الشورى: ٢٣.
(٥) الارشاد - الشيخ المفيد:٢/٨.
(٦) الآمالي: الشيخ المفيد: ٣٤٩.
(٧) التصوير الفني في خطب الإمام علي عليه السلام، د. عباس علي الفحام: ٢٨.
(٨) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٧٥ / ١١٢.
(٩) ينظر: دليل الناقد الأدبي: ٢٢.
(١٠) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٤٣ / ٣٥١.

(١١) الآمالي: الشيخ الطوسي، تح قسم الدراسات الإسلامية: ٧٨.
(١٢) التوحيد- الشيخ الصدوق: ٤٥.
(١٣) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٤٤ / ٤٢.
(١٤) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٧٥ / ١١٢.
(١٥) مناقب آل ابي طالب - ابن شهر آشوب: ٣ / ١٨٥.
(١٦) مناقب آل ابي طالب - ابن شهر آشوب: ٣ / ١٦٣.
(١٧) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ١٤ / ١١.
(١٨) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٤٣ / ٣٦٣.
(١٩) الارشاد - الشيخ المفيد: ٢ / ٨.
(٢٠) الارشاد - الشيخ المفيد: ٢ / ٧.
(٢١) التوحيد- الشيخ الصدوق: ٣٧٨.
(٢٢) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٤٣ / ٣٦٣.
(٢٣) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٤٣ / ٣٥١.
(٢٤) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ١٤/ ١١.
(٢٥) التوحيد- الشيخ الصدوق: ٣٠٦.
(٢٦) القيم الخلقية في الخطابة العربية: د سعيد حسين منصور: ١٤١.
(٢٧) القيم الخلقية في الخطابة العربية: ١٤٣.
(٢٨) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ١٤/ ١١.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- الارشاد في معرفة حجج الله على العباد - الشيخ المفيد، تح مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، نشر دار المفيد.

٢- الآمالي: الشيخ الطوسي، تح قسم الدراسات الإسلامية، ط١، مطبعة دار الثقافة (قم - ١٤١٤).

٣- الآمالي: الشيخ المفيد، تح الحسين استاد ولي علي اكبر غفاري، المطبعة الإسلامية، نشر جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم.

٤- بحار الأنوار - العلامة المجلسي، ط٢، مؤسسة الوفاء (بيروت - ١٩٨٣).

٥- التصوير الفني في خطب الإمام علي عليه السلام، د. عباس علي الفحام، مؤسسة دار الصادق الثقافية، ط١، (العراق - ٢٠١٢).

٦- التوحيد: الشيخ الصدوق، ط ١٣٨٧، تح السيد هاشم الحسيني الطهراني، نشر جماعة المدرسين، قم.

٧- دليل الناقد الأدبي: د. ميجان الرويلي، د. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط٤، (بيروت - ٢٠٠٥).

٨- شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد، تح محمد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة المرعشي النجفي، دار إحياء الكتب العربية.

٩- القيم الخلقية في الخطابة العربية، د سعيد حسين منصور، ط٢، ١٩٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٤٣.

١٠- مناقب آل ابي طالب - ابن شهر آشوب، تح لجنة من اساتذة النجف، مطبعة الحيدرية (١٩٥٦ النجف).